البحث الأوّل

المضامين والدلالات القرآنية

في الزيارة الجامعة للإمام علي الهادي عليه السلام

أ.د. حسين علي المحنا

جامعة بابل

كلية الدراسات القرآنية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدّمة:

الحمد لله الذي أنزلَ الكتابَ على محمدٍ عبدهِ ورسولِه ليكونَ للعالمين نذيرًا، وجعله داعيًا إليه وسراجًا منيرًا، وصلّى الله على آله الذين أذهب عنهم الرجسَ وطهَّرهم تطهيرًا.

أما بعد، فقد عَلَّمَ الإمامُ عليه السلام أتباعَه هذه الزيارة، وهي من أصحِّ الروايات سندًا وأعمقها موردًا وأفصحها لفظًا وأبلغها معنًى وأعلاها شأنًا، وهي العلقة الرائعة والوساطة الرفيعة بين العبد وربّه، حيث صدرت من عينٍ صافية، ونبعت من ينابيع الوحي والإلهام، وخرجت من ألسنة نواميس الدين ومعاقل الأنام.

وإذا ما أمعنا النظر في هذا النَّص المبارك نجد أنَّ كتابَ الله تعالى يمثِّلُ رصيدًا اقتباسيًّا عظيم المضمون سامي البيان، فالقرآن الكريم هو النّصُّ الخالد الذي يساير الزمانَ والمكانَ إلى يوم يبعثون، وهو البحر الذي لا ينضبُ ماؤهُ، والشجرةُ المعطاءُ التي لا تيبس، وقد أشار الإمام علي الهادي عليه السلام إلى هذا المضمون ـ من قبل ـ فعن أبي جعفر الطوسي (ت ٤٦٠ هـ)، قال:«أخبرنا جماعةٌ عن أبي المفضّل، قال: حدَّثنا يعقوب ابن السكِّيت النحوي، سألتُ أبا الحسن علي بن محمد ابن الرضا عليه السلام: ما بالُ القرآن لايزدادُ على النشر والدّرس إلّا غضاضةً؟ قال: إنَّ الله تعالى لم يجعله لِزمان دون زمان، ولا لناسٍ دون ناسٍ، فهو في كلِّ زمانٍ جديد، وعند كلِّ قومٍ غضٌّ إلى يوم القيامة»[1].

(١) عيون أخبار الرضا: ٢/ ٩٣؛ الأمالي الشيخ الطوسي: ٥٨٠.

وأجمِل بوصف الإمام زين العابدين عليه السلام (ت٩٥هـ) القرآن في صحيفته السجادية إذ قال في دعائه عند ختم القرآن: «اللهم إنَّكَ أعنتني على ختم كتابك الذي أنزلتَهُ نورًا، وجعلتَهُ مهيمنًا على كلِّ كتابٍ أنزلتَه، وفضَّلتَهُ على كلِّ حديثٍ قصصته، وفرقانًا فَرَقتَ به بين حلالك وحرامك، وقرآنًا أعربت به عن شرائع أحكامك، وكتابًا فصَّلتَهُ لعبادِكَ تفصيلًا، ووحيًا أنزلتَهُ على نبيِّك محمد صلواتك عليه وآله تنزيلًا»[١].

لذلك تنوّعت ـ كما سنرى ـ الأنساق القرآنية في هذه الزيارة إذ سنلمح المضامين والدلالات القرآنية النَّصية، والمضامين والدلالات القرآنية المحوّرة، وبعد قراءة هذه الزيارة قراءةً فاحصةً دقيقةً جاء البحث في مقدمة وتمهيد ومطلبين، ففي التمهيد تحدّثنا عن الزيارة الجامعة وسندها، وجاء المطلب الأول بعنوان المضامين والدلالات القرآنية النَّصيَّة، إذ وقفنا على النصوص القرآنية التي اقتبسها الإمام من كتاب الله (عزَّ وجلَّ) نصًّا حرفيًّا، وجاء الثاني بعنوان: المضامين والدلالات القرآنية المحورة إذ بدا لنا أنَّ الإمامَ قد أفاد من كتاب الله (عزَّ وجلَّ) وفي ضوء فهمه لهذا الكتاب وتدبره له نلمح التوظيف البياني للنصوص القرآنية في ظلِّ إفادته منها بوصفها استدلالاتٍ وأدلةً رائعةَ الحجةِ فائقةَ الدليلِ في هذه المسألة المهمة إذ نرصدُ التوظيف اللغوي والجماليّ في ظلّ كثرَةِ المضامين (الدلالات والمعاني) التي استطاع الإمامُ عليه السلام أن يقتفيها من كتاب الله، وهو أمرٌ مفروغٌ منه بوصفه من أئمة أهل البيت عليهم السلام الذين ارتشفوا من معين كلامِ الله (جلّ وعلا) الذي يُعَدُّ دستورًا عظيمًا للمسلمين.

وهذا ما ألَمَحَ إليه الإمام الرضا عليه السلام بقوله: «أنّهُ المهيمنُ على الكتب كلِّها، وأنّهُ حقٌّ من فاتحته إلى خاتمته، نؤمن بمحكمه ومتشابهه، وخاصّه وعامّه، ووعده ووعيده، وناسخه ومنسوخه، وقصصه وأخباره، لا يقدر أحدٌ من المخلوقين أن يأتيَ بمثله»[٢].

(١) الصحيفة السجادية: ١٧٤ دعاء ٤٢، مصباح المتهجد: ٥١٩.

(٢) عيون أخبار الرضا: ٢/ ١١٢ .

حاول الإمام عليه السلام إرساء معالم ثقافية قرآنية فيما أُثِرَ عنه من تراث عبر التنبيه على مرجعية القرآن الكريم بوصفه الحصانة الأولى في المجتمع، فكان داعيًا إلى استنطاق القرآن حتى يصطبغ المجتمع آنذاك وفيما بعد بالأدب القرآني.

التمهيد:

تعدُّ هذه الزيارة من أهمِّ الزيارات المروية عن الإمام عليه السلام لما فيها من دقة التعبير، وجمال الأسلوب، وعمق المضمون[١]، وهي من أشهر الزيارات وأعلاها شأنًا، وأكثرها ذيوعًا[٢].

إنَّ هذه الزيارة الجامعة اشتهرت حتى استغنت باشتهارها عن ذكر إثباتها وبيان سندها فكانت متلقاة عند الجميع بالقبول من غير معارض فيها، ولا رادّ لها مع ما كانت مشتملة عليه من المعاني الغريبة والأسرار المستصعبة العجيبة والألفاظ البليغة والأمور البديعة والأسرار المنيعة والأحوال الشريفة الرفيعة التي تشهد للعقل السليم بصحة ورودها عن الإمام عليه السلام، وهذه الزيارة رواها الصدوق في (الفقيه) ورواها الشيخ في (التهذيب) عنه، قال محمد بن علي بن الحسين بن بابويه عن علي بن أحمد بن موسى، والحسين بن إبراهيم بن أحمد الكاتب، عن محمد ابن أبي عبد الله الكوفي عن محمد بن إسماعيل البرمكي، قال: حدّثنا موسى بن عبد الله النخعي، قال: قلتُ لعلي بن محمد بن علي بن علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليهم السلام: علّمني يا ابن رسول الله قولًا أقوله بليغًا كاملًا إذا زُرتُ واحدًا منكم[٣].

وبعد أن أفردَ الأحسائي لكلِّ راوٍ من رواة هذه الزيارة بالحديث مبينًا أقوال

(١) موسوعة المصطفى صلى الله عليه وآله والعترة: ١٢/ ٧٨.

(٢) ينظر: حياة الإمام الهادي عليه السلام: ١٧٠، والسناء في سيرة إمام سامراء: ٢٩١.

(٣) ينظر: شرح الزيارة الجامعة الكبيرة: ١/ ٢٠ .

رجال الحديث، وأصحاب الجرح والتعديل فيه، قال: «بل كلّ ما يحصل للمتقدمين من القرائن تصل إلينا أو بدلها من وجود الكريم الوهاب ولتلقي الفرقة المحقّة لها بالقبول حتّى لا تجد، ولا تسمع منكرًا لها ولا متوقفًا فيها، بل لو أراد البصير الناقد أن يدّعي الإجماع على صحّتها الكاشف عن قول المعصوم عليه السلام أمكنه ذلك مع ما اشتملت عليه ألفاظها من البلاغة والفصاحة والمعاني والأسرار التي يقطع العارفُ بها أنها كلام المعصوم عليه السلام ولا يصدر مثلها عن غيره»[1].

المطلب الأول: المضامين والدلالات القرآنية المباشرة :

لاجرمَ أنَّ القرآن الكريم يمثّل الطريق الأمثل والسبيل الأسمى لأهل الأرض نحو الفضيلة، لذا وجب على المسلم (متلقي النَّص) أن يفهَمَ ما في هذا النَّص المعجز من مضامين إلهيّة، وقوانين سماوية، وثوابت عقدية كي يستطيع أداء المطلب الإلهي منه في سبيل الوصول إلى مرحلة التكامل المرجوَّة والنتائج المنشودة له .

وَزَهَرَ الكتابُ العزيز في خطابات آل البيت، وتنوّعت تقنيات الاقتباسات، وتلوّنت وهي تمثِّل أنساقًا وأنماطًا من الأثر القرآني، وعند استقراء موروث الإمام الهادي عليه السلام، فإنا نلحظ كثرة المقتبسات القرآنية التام منها والمجتزء بحسب ما يقتضيه المقام .

ويتجلّى هذا النسق في ظل الاستثمار القرآني النَّصي (المباشر) بمعنى الاستشهاد بالنَّص القرآني مباشرة، وتكاد تمثِّل القرآنية النَّصيّة (المباشرة) النسبة القليلة في هذا النَّص، ويُستعمل هذا النمط في ضوء ذكر الموضوع، أو القضية المراد إيضاحها بنصٍّ قرآنيّ، وهو أسلوب حجاجيّ عظيم الأثر، ووسيلة من وسائل إقناع المتلقي، وإيصال الفكرة إليه .

ونبصرُ الأثر القرآني المباشر في الزيارة الجامعة في قوله عليه السلام: «وعباده المكرمين

(١) ينظر: شرح الزيارة الجامعة الكبيرة: ١/ ٢٤، ٢٥.

الذين لايسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون» [١].

ففي النَّص قرآنية مباشرة مما لا يخفى مع قوله جلَّ شأنُه: ﴿**لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ**﴾[٢].

ونلحظُ التّناصَّ القرآنيّ المباشر في قول الإمام عليه السلام: «وأشهدُ أنَّ محمدًا عبده المنتجب أرسله بالهدى ودين الحقِّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون» [٣].

فهو استشراف من قوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾ [٤].

إنَّ ظهور القرآن في خطابات الأئمة عليهم السلام، ونصوصهم الإبداعية، وتغلغله فيها أمرٌ لا يُستثنى منه خطاب من خطاباتهم، فَهُم والقرآن صنوان لا يفترقان كيف لا وهُم عِدلُ القرآن، وهذا ما قرّره الرسولُ الأكرم صلى الله عليه وآله في حديث الثقلين: «إنّي تركتُ فيكم ما إن أخذتُم به فلن تضلّوا بعدي كتاب الله وعترتي أهل بيتي» [٥].

إنَّ هذا الأمر ساعدَ المتلقي على فَهم خلفية النَّص المرسَل بوصفِ القرآن مرجعًا عامًّا للمسلمين، وأتاح للإمام عليه السلام أن يشكِّلَ صورةً منه بما يتوافق وتلك الخلفية مع احترازه من تجاوز المتلقي ممّا يحقّق الإبداع، ويسهم في إشراك المتلقي في اتّساع أبعاد النَّص المنتج [٦].

وتظهر القرآنية النَّصيّة بجلاء في قول الإمام عليه السلام: «اَشْهَدُ اَنْ لا إلـهَ اِلاَّ اللهُ

(١) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٨.

(٢) الأنبياء:٢٧.

(٣) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٨.

(٤) التوبة:٣٣.

(٥) سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٤/ ٣٥٥.

(٦) ينظر: القرآنيات في علويات الشيخ صالح الكواز الحلي :٢.

وَحْدَهُ لا شَريكَ لَهُ كَما شَهِدَ اللهُ لِنَفْسِهِ وَشَهِدَتْ لَهُ مَلائِكَتُهُ وَاُولُو الْعِلْمِ مِنْ خَلْقِهِ، لا اِلـهَ اِلاّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكيمُ، وَاَشْهَدُ اَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ الْمُنْتَجَبُ، وَرَسُولُهُ الْمُرْتَضى، اَرْسَلَهُ بِالْهُدى وَدينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ»[١].

تبدّى لنا استشهار الإمام لقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ**﴾[٣].

ونرصد القرآنية النَّصيّة في قول الإمام عليه السلام: «آتاكم الله ما لم يؤتِ أحدًا من العالمين»[٤] فقد استشرف الإمام هذا من قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَآتَاكُمْ مَا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ**﴾[٥].

يمثّل النَّص المقدس في موروث آل البيت حضورًا واسعاً، فهو أكثر المنابع استشرافًا واستلهامًا فيه، فاستدعاء النَّص المقدّس في هذه الزيارة جاء من أجل الوصول إلى السلالم العاليات في عملية التفاعل والتواصل لمعرفة الإمام بقدسية هذا النَّص لدى المتلقي واحترامه له بلحاظ أنّه نصٌّ ديني حاز الإعجاب والرفعة والعلو .

ومن الأقتباسات القرآنية المباشرة ما يظهر لنا في قول الإمام عليه السلام: «اَشْهَدُ اَنَّ هذا سابِقٌ لَكُمْ فيما مَضى، وَجارٍ لَكُمْ فيما بَقِيَ، وَاَنَّ اَرْواحَكُمْ وَنُورَكُمْ وَطينَتَكُمْ واحِدَةٌ، طابَتْ وَطَهُرَتْ بَعْضُها مِنْ بَعْض، خَلَقَكُمُ اللهُ اَنْواراً فَجَعَلَكُمْ بِعَرْشِهِ مُحْدِقينَ حَتّى

(١) مسند الإمام الهادي عليه السلام: ٢٤٨.

(٢) آل عمران :٦.

(٣) التوبة :٣٣.

(٤) مسند الإمام الهادي :٢٤٨.

(٥) المائدة:٢٠.

مَنَّ عَلَيْنا بِكُمْ، فَجَعَلَكُمْ في بُيُوت اَذِنَ اللهُ اَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فيهَا اسْمُهُ، وَجَعَلَ صلاتنا عَلَيْكُمْ وَما خَصَّنا بِهِ مِنْ وِلايَتِكُمْ طيباً لِخَلْقِنا، وَطَهارَةً لِانْفُسِنا، وَتَزْكِيَةً لَنا، وَكَفّارَةً لِذُنُوبِنا»[1].

فقد وظّف الإمام النَّصَّ القرآني واستثمر قوله تعالى: ﴿**فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللهُ أَنْ تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ**﴾[2].

وإنَّ التأكيد على المنظومة الأخلاقية القرآنية العظيمة يؤدي إلى الوصول إلى المبتغى الإلهي، وهو السبيل إلى الحقيقة، وما بذله الإمام من جَهدٍ ارتبط ارتباطًا وثيقًا بالمفاهيم القرآنية الواسعة التي أفضت إلى تكشيف الحقائق وسطوعها أمام الناظرين.

وقد سعى الإمام عليه السلام إلى هذا الاستثمار القرآني الذي يتّسع في مواطن كثيرة في الزيارة الجامعة مما يُنبأ عن أهداف الإمام في إيصال أفكاره وتأكيد منهجه الذي ورثه عن آبائه وجدّه النبي الأكرم صلى الله عليه وآله، ويتجلّى هذا في قوله عليه السلام: «عصمكم من الزلل وآمنكم من الفتن وطهّركم من الدنس وأذهب عنكم الرجس وطهّركم تطهيرًا»[3] استشرافًا بقوله تعالى: ﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا**﴾[4].

ونبصر الاستثمار القرآني في هذا النص فتتعالى فيه المضامين والدلالات القرآنية ونجد الإمام يؤكد مبتغاه في شدِّ انتباه المتلقي حين يكثّف استعماله لآي الذكر الحكيم من أجل تعزيز فكرةٍ أوتحقيق هدفٍ، ويتواشج نصَّ الباحث مع النصّ القرآني بأسلوب يبهر المتلقي، فنجاح عملية التواصل تقتضي معرفة المخاطب وتعيينه، فهو

(١) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٩ .

(٢) النور :٣٦.

(٣) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٨ .

(٤) الأحزاب:٣٣.

يمثّل الساند الثالث لاكتمال الوظيفة التواصلية لخطابٍ ما[١]. ويظهر هذا في قوله عليه السلام: «وَبِمُوالاتِكُمْ تَمَّتِ الْكَلِمَةُ، وَعَظُمَتِ النِّعْمَةُ، وَائْتَلَفَتِ الْفُرْقَةُ، وَبِمُوالاتِكُمْ تُقْبَلُ الطّاعَةُ الْمُفْتَرَضَةُ، وَلَكُمُ الْمَوَدَّةُ الْواجِبَةُ، وَالدَّرَجاتُ الرَّفيعَةُ، وَالْمَقامُ الْمَحْمُودُ، وَالْمَكانُ الْمَعْلُومُ عِنْدَ الله عَزَّوَجَلَّ، وَالْجاهُ الْعَظيمُ، وَالشَّأنُ الْكَبيرُ، وَالشَّفاعَةُ الْمَقْبُولَةُ، رَبَّنا آمَنّا بِما اَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنا مَعَ الشّاهِدينَ، رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ اِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً اِنَّكَ اَنْتَ الْوَهّابُ، سُبْحانَ رَبِّنا اِنْ كانَ وَعْدُ رَبِّنا لَمَفْعُولاً، يا وَلِيَّ الله اِنَّ بَيْنى وَبيْنَ الله عَزَّوَجَلَّ ذُنُوباً لا يَأتى عَلَيْها اِلاّ رِضاكُمْ»[٢].

ومما يُلفت الانتباه أنَّ الإمام وظَّف النَّصَّ القرآني في هذا الموطن بطريقة تنماز عن أسلوبه السابق حيث عزَّزَ النَّصَّ بثلاث آيات بطريقة متتابعة، فقد استثمر قوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ**﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿**رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ**﴾[٤]، وقوله تعالى: ﴿**وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا**﴾[٥].

ولابدّ من القول: إنَّ الأقتباسات القرآنية في هذا النَّص تنوعت بين آية غير مجتزئة وآية مجتزئة بحسب ما يقتضيه الموقف وما تدعو إليه الحاجة على أنَّ الاستشهاد بالنَّص القرآني يدعو إلى معاينة النَّص للوصول إلى المراد التام وتحقيق الهدف المنشود.

المطلب الثاني: المضامين والدلالات القرآنية المحوّرة:

من الأنماط القرآنية التي وظّفها الإمام عليه السلام في الزيارة الجامعة الاستعمال

(١) الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي: ٩١.

(٢) مسند الإمام الهادي عليه السلام: ٢٥٢.

(٣) آل عمران :٥٣.

(٤) آل عمران :٨.

(٥) الاسراء :١٠٨.

القرآني غير المباشر (المحوّر) وهو استثمار قرآني غير نصّي، فنلحظ المضامين والدلالات القرآنية التي تمكَّن الإمام من اقتناصها من النَّص القرآني، واعتماده كلمات محوريّة وظَّفها توظيفًا ينمُّ عن قدرته البارعة في تطريز خطابه بالكلام الإلهي، ففي حديث الإمام عن آل البيت عليهم السلام، قال: «اَلسَّلامُ عَلَيْكُمْ يا اَهْلَ بَيْتِ النُّبُوَّةِ، وَمَوْضِعَ الرِّسالَةِ، وَمُخْتَلَفَ الْمَلائِكَةِ، وَمَهْبِطَ الْوَحْيِ، وَمَعْدِنَ الرَّحْمَةِ، وَخُزّانَ الْعِلْمِ، وَمُنْتَهَى الْحِلْمِ، وَاُصُولَ الْكَرَمِ، وَقادَةَ الاُمَمِ، وَاَوْلِياءَ النِّعَمِ، وَعَناصِرَ الاَبْرارِ، وَدَعائِمَ الاَخْيارِ، وَساسَةَ الْعِبادِ، وَاَرْكانَ الْبِلادِ، وَاَبْوابَ الاْيمانِ، وَاُمَناءَ الرَّحْمنِ، وَسُلالَةَ النَّبِيّينَ، وَصَفْوَةَ الْمُرْسَلينَ، وَعِتْرَةَ خِيَرَةِ رَبِّ الْعالَمينَ وَرَحْمَةُ الله وَبَرَكاتُهُ»[1] ونلحظ الاستثمار القرآني لقوله تعالى: ﴿**قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللهِ رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا**﴾[4]. وفي ظل استقراء تراث الإمام علي الهادي عليه السلام نبصر المضامين والدلالات القرآنية تقطر وتفيض، والقرآن الكريم (من جهة الأدب غاية الجمال، ومن جهة الفضيلة غاية الخير، ومن جهة الفلسفة غاية الحق)[5].

وإنَّ للقرآن أسلوبه في تفجير كلّ مستويات اللغة التركيبية واستغلال طاقتها في إقامة علاقات غير متوقعة بين العناصر التي تتشكّل منها الجمل، وتظهر لنا قدرة

(١) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٧.

(٢) هود :٧٣.

(٣) مريم:٥٨.

(٤) الأحزاب:٧.

(٥) ينظر: تأريخ القرآن وعلومه: ٢، ومناهج تفسير النَّص القرآني: ٧٠، ٧١ .

الإمام في التصرف بالجملة القرآنية وإعادة صياغتها بحسب مقتضيات الموقف[١]. ويتبدّى لنا هذا في قوله عليه السلام: «اَلسَّلامُ عَلى اَئِمَّةِ الْهُدى، وَمَصابيحِ الدُّجى، وَاَعْلامِ التُّقى، وَذَوِى النُّهى، وَاُولِى الْحِجى، وَكَهْفِ الْوَرى، وَوَرَثَةِ الاَنْبِياءِ، وَالْمَثَلِ الاَعْلى، وَالدَّعْوَةِ الْحُسْنى، وَحُجَجِ اللهِ عَلى اَهْلِ الدُّنْيا وَالآخِرَةِ وَالاَولى وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ»[٢].

واستشرافًا بقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ**﴾[٣]. وقوله: ﴿**فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ**﴾[٤] وقوله جلَّ شأنُه: ﴿**وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ**﴾[٥].

ويظهر أثرُ القرآن الكريم واضحًا في كلام الإمام، فقد أراد أن يوظِّفَ النَّصَّ القرآنيَّ ليصلَ إلى أعلى درجات البيان ومراقي الوضوح .

إنَّ التأكيدَ على المنظومة الأخلاقية القرآنية العظيمة والمتحدة الأجزاء تؤدي إلى التقدم والانفتاح، والتطور الشامل والمتعدد الأبعاد، وإنَّ مثل هذه الجهود المبذولة بحثًا عن المفاهيم القرآنية الواسعة تكشف الميادين والحقول الخصبة لتحرِّك إنتاج العلم الديني وفاعليته، إذ يصبح الدين والعلم الديني على إثرها منبعًا زلالًا جاريًا متواصلًا باستمرار .

(١) ينظر: الأثر القرآني في نهج البلاغة دراسة في الشكل والمضمون: ٨٤، وإعجاز القرآن للباقلاني: ٣٥ـ٣٨.

(٢) ينظر: فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في إنتاج المعرفة الدينية: ٥٧، والأثر القرآني في الخطاب الديني عند رضي الدين علي ابن طاوُس الحلي: ٢٨ .

(٣) سورة الأنبياء:٧٣.

(٤) سورة فصلت:١٢.

(٥) سورة الملك:٥.

إنَّ النَّصَّ القرآني ذو أثرٍ مستمرٍّ وفاعل في النصوص والخطابات والمقولات، ولاسيما في مدونات ونصوص أهل البيت عليهم السلام فهو يشكل حضورًا دلاليًّا، ومرتكزًا فاعلًا في مدوناتهم، ويتجلى هذا الأمر بوضوح في قول الإمام علي عليه السلام في النهج: «وَاعْلَمُوا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ هُوَ النَّاصِحُ الَّذِي لَا يَغُشُّ وَالْهَادِي الَّذِي لَا يُضِلُّ وَالْمُحَدِّثُ الَّذِي لَا يَكْذِبُ وَمَا جَالَسَ هَذَا الْقُرْآنَ أَحَدٌ إِلَّا قَامَ عَنْهُ بِزِيَادَةٍ أَوْ نُقْصَانٍ زِيَادَةٍ فِي هُدًى أَوْ نُقْصَانٍ مِنْ عَمًى. وَاعْلَمُوا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ الْقُرْآنِ مِنْ فَاقَةٍ وَلَا لِأَحَدٍ قَبْلَ الْقُرْآنِ مِنْ غِنًى، فَاسْتَشْفُوهُ مِنْ أَدْوَائِكُمْ وَاسْتَعِينُوا بِهِ عَلَى لَأْوَائِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ شِفَاءً مِنْ أَكْبَرِ الدَّاءِ وَهُوَ الْكُفْرُ وَالنِّفَاقُ وَالْغَيُّ وَالضَّلَالُ. فَاسْأَلُوا اللهَ بِهِ وَتَوَجَّهُوا إِلَيْهِ بِحُبِّهِ وَلَا تَسْأَلُوا بِهِ خَلْقَهُ. إِنَّهُ مَا تَوَجَّهَ الْعِبَادُ إِلَى اللهَ تَعَالَى بِمِثْلِهِ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ شَافِعٌ مُشَفَّعٌ وَقَائِلٌ مُصَدَّقٌ وَأَنَّهُ مَنْ شَفَعَ لَهُ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ شُفِّعَ فِيهِ، وَمَنْ مَحَلَ بِهِ الْقُرْآنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ صُدِّقَ عَلَيْهِ، فَإِنَّهُ يُنَادِي مُنَادٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ كُلَّ حَارِثٍ مُبْتَلًى فِي حَرْثِهِ وَعَاقِبَةِ عَمَلِهِ غَيْرَ حَرَثَةِ الْقُرْآنِ فَكُونُوا مِنْ حَرَثَتِهِ وَأَتْبَاعِهِ وَاسْتَدِلُّوهُ عَلَى رَبِّكُمْ وَاسْتَنْصِحُوهُ عَلَى أَنْفُسِكُمْ، وَاتَّهِمُوا عَلَيْهِ آرَاءَكُمْ وَاسْتَغِشُّوا فِيهِ أَهْوَاءَكُمْ»(١).

إذْ إنَّ القرآن هو المصدر الأول في الزيارة الجامعة، فالإمام اتّصل بالقرآن الكريم منذ صغره وانكبَّ على حفظه وفهمه وتدبر معانيه، ونرصدُ المضامينَ القرآنية في قوله عليه السلام: «السلام على الدعاة إلى الله والأدلاء على مرضات الله والمستقرّين في أمر الله والتّامين في محبة الله والمخلصين في توحيد الله والمظهرين لأمر الله ونهيه وعباده المكرمين الذين لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ورحمة الله وبركاته»(٢).

حيث استثمر الإمامُ قولَهُ تعالى: ﴿**أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا**﴾(٣)، وقوله:

(١) نهج البلاغة: ٢/ ٩١، ٩٢.

(٢) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٥١.

(٣) سورة الإسراء: ٥٧.

﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾(١). وقوله: ﴿لاَ يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ﴾(٢).

وفي ظل استقراء نصِّ الزيارة الجامعة نلحظ الأثر القرآني في قوله عليه السلام: «وَصَبَرْتُمْ عَلى ما اَصابَكُمْ في جَنْبِهِ، وَاَقَمْتُمُ الصَّلاةَ، وَآتَيْتُمُ الزَّكاةَ، وَاَمَرْتُمْ بِالْمَعْرُوفِ، وَنَهَيْتُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَجاهَدْتُمْ في الله حَقَّ جِهادِهِ حَتّى اَعْلَنْتُمْ دَعْوَتَهُ، وَبَيَّنْتُمْ فَرائِضَهُ، وَاَقَمْتُمْ حُدُودَهُ، وَنَشَرْتُمْ شَرايعَ اَحْكامِهِ، وَسَنَنْتُمْ سُنَّتَهُ، وَصِرْتُمْ في ذلِكَ مِنْهُ اِلَى الرِّضا، وَسَلَّمْتُمْ لَهُ الْقَضاءَ، وَصَدَّقْتُمْ مِنْ رُسُلِهِ مَنْ مَضى»(٣).

فهو استشراف من مواضع عدّة كقوله تعالى: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾(٤)، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾(٥)، وقوله: ﴿لَكِنِ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِالله وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾(٦)، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ الله لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾(٧).

ويظهر استثمار الألفاظ القرآنية في هذا النَّص بشكل جلي ففي قوله عليه السلام: «فَكُنّا عِنْدَهُ مُسَلِّمينَ بِفَضْلِكُمْ، وَمَعْرُوفينَ بِتَصْديقِنا اِيّاكُمْ، فَبَلَغَ اللهُ بِكُمْ اَشْرَفَ مَحَلِّ الْمُكَرَّمينَ، وَاَعْلى مَنازِلِ الْمُقَرَّبينَ، وَاَرْفَعَ دَرَجاتِ الْمُرْسَلينَ، حَيْثُ لا يَلْحَقُهُ لاحِقٌ، وَلا يَفُوقُهُ فائِقٌ، وَلا يَسْبِقُهُ سابِقٌ، وَلا يَطْمَعُ في اِدْراكِهِ طامِعٌ، حَتّى لا يَبْقى مَلَكٌ

(١) سورة الحجر: ٤٠.

(٢) سورة الأنبياء: ٢٧.

(٣) المصدر نفسه: ٢٤٩.

(٤) سورة الرعد: ٢٤.

(٥) سورة النحل: ١٢٦.

(٦) سورة النساء: ١٦٢.

(٧) سورة العنكبوت: ٦٩.

مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ، وَلا صِدّيقٌ وَلا شَهيدٌ، وَلا عالِمٌ وَلا جاهِلٌ، وَلا دَنِيٌّ وَلا فاضِلٌ، وَلا مُؤْمِنٌ صالِحٌ، وَلا فاجِرٌ طالِحٌ، وَلاجَبّارٌ عَنيدٌ، وَلا شَيْطانٌ مَريدٌ، وَلا خَلْقٌ فيما بَيْنَ ذلِكَ شَهيدٌ اِلاّ عَرَّفَهُمْ جَلالَةَ اَمْرِكُمْ، وَعِظَمَ خَطَرِكُمْ، وَكِبَرَ شَأنِكُمْ وَتَمامَ نُورِكُمْ، وَصِدْقَ مَقاعِدِكُمْ، وَثَباتَ مَقامِكُمْ، وَشَرَفَ مَحَلِّكُمْ وَمَنْزِلَتِكُمْ عِنْدَهُ، وَكَرامَتَكُمْ عَلَيْهِ، وَخاصَّتَكُمْ لَدَيْهِ، وَقُرْبَ مَنْزِلَتِكُمْ مِنْهُ»[1] نبصُر التعالق والتواشج بين النَّص القرآني وهذا النَّص حيث استثمر الإمام قوله تعالى: ﴿**وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿**وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ**﴾[3]، وقوله تعالى: ﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ**﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿**فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ**﴾[5].

لقد تمكَّن الإمامُ من تكثيف المضامين والدلالات القرآنية في هذه الزيارة، والتي تظهر بجلاء في قوله: «وبقية الله وخيرته وحزبه وعيبة علمه وحجته وصراطه ونوره وبرهانه ورحمة الله وبركاته» [6]. إذ استثمر قوله تعالى: ﴿**أُولَئِكَ حِزْبُ اللهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾[7]، وقوله: «**وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾[8]، وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا**

(١) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٩، ٢٥٠ .

(٢) سورة هود :٥٩.

(٣) سورة إبراهيم :١٥.

(٤) سورة الحج :٣.

(٥) سورة القمر :٥٥.

(٦) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٥٢ .

(٧) سورة المجادلة:٢٢.

(٨) سورة الأنعام:١٥٣.

النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾(١)، وقوله: **﴿رَحْمَتُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ﴾**(٢).

وكان الإمام علي الهادي عليه السلام شديد التأثر بالقرآن الكريم، فقد عمل على ترسيخ الثقافة القرآنية في أذهان المتلقين، وهذه سمة بارزة في هذا النَّص وفي كلِّ ما تركه لنا من موروث، ومن تأثره بكتاب الله عزَّ وجلَّ قوله: «وَ جَعَلَنى مِمَّنْ يَقْتَصُّ آثارَكُمْ، وَيَسْلُكُ سَبيلَكُمْ، وَيَهْتَدى بِهُداكُمْ، وَيُحْشَرُ في زُمْرَتِكُمْ، وَيَكِرُّ في رَجْعَتِكُمْ، وَيُمَلَّكُ في دَوْلَتِكُمْ، وَ يُشَـرَّفُ في عافِيَتِكُمْ، وَيُمَكَّنُ في اَيّامِكُمْ، وَتَقِرُّ عَيْنُهُ غَداً بِرُؤْيَتِكُمْ، بِاَبى اَنْتُمْ وَاُمّى وَنَفْسى وَاَهْلى وَمالى، مَنْ اَرادَ اللهَ بَدَأَ بِكُمْ، وَمَنْ وَحَّدَهُ قَبِلَ عَنْكُمْ، وَمَنْ قَصَدَهُ تَوَجَّهَ بِكُمْ» (٣).

ويبدو في ظلِّ المتقدم أنَّ الإمام قد عايَنَ المضامين والدلالات القرآنية معاينةً دقيقةً فاحصة استشرافًا بقوله تعالى: **﴿قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّا عَلَى آثَارِهِمَا قَصَصًا﴾**(٤)، وقوله تعالى: **﴿وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾**(٥)، وقوله تعالى: **﴿إِذْ تَمْشِي أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى مَنْ يَكْفُلُهُ فَرَجَعْنَاكَ إِلَى أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ الْغَمِّ وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِي أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَى قَدَرٍ يَا مُوسَى﴾**(٦).

وتتعالى الدلالات والمضامين القرآنية، وتشرق في هذا النَّص كما هو الحال

(١) سورة النساء:١٧٤.

(٢) سورة هود:٧٣.

(٣) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٥١ .

(٤) سورة الكهف:٦٤.

(٥) سورة الزمر :٧٣.

(٦) سورة طه :٤٠.

في قوله: «كما شهد الله لنفسه وشهدت له ملائكته وأولو العلم من خلقه لا إله إلّا هو العزيز الحكيم»[٧]. إذ استوحى الإمامُ عليه السلام المضامين القرآنية من قوله تعالى: ﴿شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٨].

ولا يخفى أنَّ الإمامَ أرادَ أن يقاربَ المجالات التداولية للواقع المَعيش بمعنى أنَّهُ أراد أن يوظِّفَ المتخيَّلَ القرآني في خطابه للوصول إلى أعلى درجات البيان، ومراقي الوضوح، ومن هنا فإنَّ الإمامَ في ظل ذوبانه في كتاب الله حفظًا وتدبرًا وفَهمًا، فقد حشَّدَ في هذا النَّص مضامين ودلالات مرجعها كتاب الله، فَهُم عليهم السلام الشجرة المباركة والعلم الزاهر والبحر الزاخرالذي ليس له آخر، فقد زَهَرَ الكتابُ العزيز في خطاب أئمة أهل البيت عليهم السلام، ويتجلى هذا في قوله عليه السلام: «دعوتم إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة وبذلتم أنفسكم في مرضاته»[٩]، استشرافًا واستيحاءً بقوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[١٠].

ونرصد المضامين والدلالات الموظفة في قول الإمام عليه السلام: «وصبرتم على ما أصابكم في جنبه وأقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وأمرتم بالمعروف ونهيتم عن المنكر وجاهدتم في الله حقَّ جهاده» [١١].

إذ وظَّفَ الإمامُ قولَ الله تعالى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ

(٧) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٧.

(٨) سورة آل عمران:١٨.

(٩) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٨.

(١٠) سورة النحل:١٢٥.

(١١) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٨.

وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾[٢]، وقوله: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾[٣].

ونبصرُ الاستشهارَ القرآني في النمط المحوَّر في قول الإمام عليه السلام: «وفصل الخطاب عندكم وعزائمه فيكم ونوره وبرهانه عندكم وأمره إليكم»[٤]. استرفادًا واستشرافًا بقوله تعالى: ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾[٥]، وقوله: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا**﴾[٦].

ويظهرُ استشهارُ الألفاظ القرآنية في هذا النَّص بشكلٍ جليّ، ففي قوله عليه السلام: «وبرئتُ إلى الله عزَّ وجل من أعدائكم من الجبت والطاغوت، والشياطين وحزبهم الظالمين لكم والجاحدين لحقِّكم»[٧].

ولقد استوحى الإمامُ هذه الدلالات والمضامين من قوله تعالى: ﴿**أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلًا**﴾[٨]، وقوله: ﴿**اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ فَأَنْسَاهُمْ ذِكْرَ اللهِ أُولَئِكَ حِزْبُ الشَّيْطَانِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ الشَّيْطَانِ هُمُ الْخَاسِرُونَ**﴾[٩].

---

(١) سورة النحل:١٢٧.

(٢) سورة البقرة:٢٧٧.

(٣) سورة العنكبوت:٦٩.

(٤) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٨.

(٥) سورة سورة ص:٢٠.

(٦) سورة النساء:١٧٤.

(٧) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٨.

(٨) سورة النساء: ٥١.

(٩) سورة المجادلة: ١٩.

ويتجلّى أثرُ القرآن ويُزهرُ في خطابات الإمام الهادي عليه السلام، إذ نجد المفاهيم القرآنية، والدلالات المضمونية القرآنية حاضرةً فيها، فقد استثمر الإمامُ هذا الأثر العظيم، وعَبَّرَ عن هذا التعالق والتواشج بكلام ربِّ العزَّة بقوله: «والغاصبين لإرثكم والشاكّين فيكم والمنحرفين عنكم ومن كلِّ وليجةٍ دونكم وكلّ مطاعٍ سواكم ومن الأئمة الذين يدعون إلى النار»[١].

إذْ استوحى الإمامُ هذه الدلالات من قوله تعالى: ﴿**أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾[٢]، وقوله تعالى: ﴿**وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ**﴾[٣].

وقد تأثَّرَ البيانيون بالقرآن الكريم، لا سيّما حَمَلَتُهُ وحلفاؤه أهل البيت عليهم السلام، فحفظوه وتدبروا آياته، فَهُم كتاب الله الناطق، ولمّا كان الإمامُ الهادي من تلك الشجرة المباركة، فقد حَذا حَذوَ آبائه وأجداده في التمسك بكتاب الله والعمل به، إذ أثَّرَ في حياته وسلوكه وخطابه، ولو تأمّلنا قولَه عليه السلام: «بكم فتح وبكم يختم وبكم ينزل الغيث وبكم يمسك السماء أن تقع على الأرض إلّا بإذنه وبكم ينفس الهم ويكشف الضر»[٤]. لعلمنا أنَّ الإمامَ قد استشرفَ قولَ الله تعالى: ﴿**إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا**﴾[٥]، وقوله: ﴿**فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا**

(١) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٤٩.

(٢) سورة التوبة: ١٦.

(٣) سورة القصص: ٤١.

(٤) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٥٠.

(٥) سورة فاطر: ٤١.

وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾[١].

وإنَّ الزيارةَ الجامعة من النِّصوص الإبداعية التي توسّمَ مبدعُها امتدادًا قرآنيًّا في داخل منتجه الذي يتوجّه به نحو الله تعالى، وهو ما يُظهرُ أصالة التّناص القرآني في تراث آل البيت، وكانوا في كلِّ ذلك يعمدون إلى إحداث علائقية مع القرآن بمختلف مستوياته من المفردة إلى التركيب الضام للآية[٢].

ويتجلّى الاستثمارُ القرآني غير المباشر في قوله عليه السلام: «وذَلَّ كلّ شيءٍ لكم وأشرقت الأرضُ بنوركم وفاز الفائزون بولايتكم»[٣]. استشرافًا بقوله تعالى: **﴿وَأَشْرَقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾**[٤].

لقد أعاد الإمامُ إحداث بنية جديدة، أو نسق بنائي ألفاظه قرآنية في المقام الأول، إذ نجد هذه المضامين والدلالات القرآنية طافيةً على سطح النَّص، ويتجسَّد هذا في قوله: «أخرجنا من الذِّل وفرَّجَ عنَّا غمراتِ الكروب وأنقذنا بكم من شفا جرف الهلكات» [٥].

وتبدّى لنا أنَّ الإمامَ عليه السلام استدعى في قوله هذا قولَ الله تعالى: **﴿وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنَ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ﴾**[٦]، وقوله:

---

(١) سورة الأنبياء: ٨٤.

(٢) ينظر: القرآنية في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفة: ٥.

(٣) مسند الإمام الهادي عليه السلام: ٢٥٠، ٢٥١.

(٤) سورة الزمر: ٦٩.

(٥) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٥١ .

(٦) سورة الشورى: ٤٥.

﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[١].

وتتجلّى الدلالات والمضامين القرآنية في قول الإمام: «بموالاتكم تمت الكلمة وعظمت النعمة وائتلفت الفرقة»[٢]. لقد استوحى الإمام عليه السلام هذا من قول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ﴾[٣]، وقوله: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾[٤]، وقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٥].

وتظهر لنا المضامين والدلالات القرآنية في قول الإمام عليه السلام: «صيِّروني في حزبكم وأدخلوني في شفاعتكم واذكروني عند ربكم»[٦]. فقد استثمر الإمامُ قولَ الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾[٧]، وقوله: ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾[٨]، وقوله: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾[٩].

(١) سورة التوبة: ١٠٩.

(٢) مسند الإمام علي الهادي عليه السلام: ٢٥٢.

(٣) سورة هود: ١١٩.

(٤) سورة النحل: ١٨.

(٥) سورة الأنعام: ١٥٣.

(٦) من لا يحضره الفقيه: ٢/ ٦٠٩.

(٧) سورة المائدة: ٥٦.

(٨) سورة طه: ١٠٩.

(٩) سورة يوسف: ٤٢.

خاتمة البحث ونتائجه :

بعد هذه الرحلة المباركة في رحاب الزيارة الجامعة آن لنا أن نذكر أبرز النتائج التي توصّلنا إليها:

أولاً: تنوعت الأنساق القرآنية بين مضامين ودلالات قرآنية نصّية، ومضامين ودلالات قرآنية موظفة، وهذا التنوّع يدلُّ على ذوبان الإمام في كتاب الله تعالى .

ثانياً: تبدى لنا أن المضامين والدلالات المحوّرة قد شغلت الحيّز الأكبر في الزيارة الجامعة، وهو ملمح أدائي وأسلوبي يُظهِرُ مدى اتصال الإمام بكتاب الله تعالى وتمكنه الباصر منه فهمًا وتدبرًا واستنطاقًا .

ثالثاً: تمكّن الإمامُ من استثمار المعجم القرآني في توظيف الدلالات التي استشرفها في الزيارة الجامعة، ومن المعلوم أنَّ الشاهد القرآني قطعيّ الدلالة في بيان مراد الله تعالى .

رابعًا: إتكأ الإمامُ على المرجعية القرآنية ليوصل أفكاره ويؤكدها لدى المتلقي لأنها تُضفي على النَّص المقبولية فضلًا عن السعة والرحابة .

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين وصلى الله على محمدٍ وعلى آله الطيبين الطاهرين .

روافد البحث:

ـ الأثر القرآني في الخطاب الديني عند ابن طاوُس الحلي، د. رحيم كريم الشريفي، د. حسين علي الفتلي، مجلة المحقق، المجلد الأول، العدد الثاني، ١٤٣٨ هـ ١٩٩٩م.

ـ الأثر القرآني في نهج البلاغة دراسة في الشكل والمضمون، عباس علي حسين الفحام، العتبة العلوية المقدسة، العراق، النجف الأشرف، ٢٠١٢ م .

ـ إعجاز القرآن للباقلاني أبي بكر محمد بن الطيّب (ت٤٠٣هـ)، تحقيق: السيد أحمد صقر، ط٣، دار المعارف بمصر .

ـ تأريخ القرآن وعلومه، الدكتور سيروان عبد الزهرة الجنابي، ط١، دار الأمير، النجف الأشرف، ١٤٣٧هـ ٢٠١٦م .

ـ جامع البيان عن تأويل آي القرآن: محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠ه)، تحقيق: صدقي جميل العطار، منشورات دار الفكر، ١٤١٥هـ .

ـ حياة الإمام الهادي عليه السلام دراسة وتحليل، باقر شريف القرشي (ت١٤٣٢هـ)، تحقيق: مهدي باقر القرشي، ط١، مؤسسة الإمام الحسين لإحياء تراث أهل البيت عليهم السلام، النجف، العراق، ١٤٣٤هـ ـ٢٠١٣م .

ـ الخطاب القرآني دراسة في البعد التداولي، الدكتور مؤيد آل صوينت، ط١، مكتبة الحضارات، بيروت، لبنان، ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

ـ سعد السعود: ابن طاووس علي بن موسى بن جعفر(ت٦٦٤ هـ)، ط١، منشورات المطبعة الحيدرية، النجف الأشرف، ١٣٦٩هـ .

ـ سلسلة الأحاديث الصحيحة وشيء من فقهها وفوائدها: محمد ناصر الدين الألباني، الناشر مكتبة المعارف، الرياض، ٢٠٠٠م .

ـ السناء في سيرة إمام سامراء علي بن محمد الهادي عليهما السلام دراسة تحليلية: د. رحيم كريم الشريفي، جامعة بابل / كلية الدراسات القرآنية، ط١، العتبة الحسينية المقدسة، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠١٦م .

ـ شرح الزيارة الجامعة الكبيرة، الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي، دار المفيد، ط١، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م .

ـ عيون أخبار الرضا: الصدوق محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمّي (ت٣٨١ هـ)، تحقيق: الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت ـ لبنان .

ـ فلسفة مرجعية القرآن المعرفية في إنتاج المعرفة الدينية، نجف علي ميرزائي، ترجمة: د. دلال عباس، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، سلسلة الدراسات القرآنية، بيروت، ٢٠٠٨م .

ـ القرآنية في دعاء الإمام الحسين عليه السلام في عرفة، سناء علي حسين الحمداني، مجلة أهل البيت عليهم السلام، العدد ٩ .

ـ القرآنية في علويات الشيخ صالح الكواز الحلي: د. علي كاظم المصلاوي، م. كريمة نوماس المدني، مجلة جامعة أهل البيت، ع٦، ٢٠٠٨ م .

ـ كنز الفوائد: أبو الفتح الكراجكي محمد بن علي (ت٤٤٩هـ)، مكتبة المصطفوي، ط٢، قم ـ إيران .

ـ مسند الإمام الهادي: جمعه ورتّبه: عزيز الله العطاردي، ط٢، دار الصفوة، بيروت ـ لبنان، ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م .

ـ مَن لا يحضره الفقيه، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي (ت٣٨١هـ)، ط١، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م .

ـ مناهج تفسير النَّص القرآني، الدكتور سيروان عبد الزهرة الجنابي، ط١، دار الأمير، النجف الأشرف، ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م .

ـ موسوعة المصطفى صلى الله عليه وآله والعترة (الهادي علي عليه السلام)، حسين الشاكري (ت١٤٣٠هـ)، مطبعة سُتارة، قم، ايران، ١٤١٩هـ .

ـ نهج البلاغة، الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام، وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضي، ضبط نصه وابتكر فهارسه العلمية: الدكتور صبحي الصالح، منشورات دار الهجرة .